جرائم الشرف في رواية "شرفة العار" لإبراهيم نصرالله
قراءة على ضوء النقد النسوي

شهريار نيازي
استاذ مشارك، جامعة طهران–ايران

فاطمة أعرجي
دكتوراه فرع اللغة العربية وآدابها، جامعة طهران–ايران

(مُلَخَّصُ البَحث)

جاءت النسوية كممارسة واقعية ذات اهداف عينية تعمل في الساحة لتغيير الظروف الاجتماعية. وهي نظرية لها ارتباط بالواقعي والعيني واليومي وانها فكر وممارسة معا. وان النسوية كانت على مدى التاريخ نشاطا انشغلت به كثير من النساء من خلفيات ثقافية مختلفة، لم تكن احادية البُعد او احادية السبب. وانّ قراءتنا لهذه الرواية واستخدامنا لهذه النظرية، لم تكن الا ارضية كي نناقش ظاهرة جرائم الشرف في هذه الرواية والتي تحاول ان تمثل وضع المراة في اطار التوزيع غير المتكافئ للامتياز والسلطة عبر الجنوسة.

حاولنا في هذه القراءة تقديم نظرة عمّا يخلفه النظام الابوي من الانتهاكات والتي تدعمه المؤسسات الثقافية. وقد بيّنا بقدرٍ ما، انّ هذه الرواية صورة صريحة واضحة عن الاضطهاد ضد النساء اذ رسم لنا سردها الحدود المتغيرة بين العار والشرف وبين الاحتشام والانحراف، اذ جاءت لتذكرنا نحن في شبكة معقدة من عناصر القوة والسلطة فان هذه المفاهيم تتقيد بقدر كبير بالخطابات التي تحتضنها. ولهذا تستدعي دراسة هذه الرواية الى السُبل الأمثل لموقع المراة والرجل في خطاب الأعراف والطقوس والمؤسسات، داعيةً لنا أن ندرس النظام الذكوري وما يجلبه من المآسي لكلا الجنسين بعناية أكثر، ودفع هذه القضايا الى الصدارة مرة أخرى.

الكلمات الرئيسية: العُنف الأُسَري، السرد النسوي، جرائم الشرف، سلطة الأعراف، الهرمية

المقدمة

انّ الكتابة قبل ان تكون تركيبا لغويا فهي تعبير وبوح. فحين نعبّر عن الكتابة بالفاظ الخلاص، والتعبير، والبوح، فبالتأكيد هناك الم يشعره الكاتب او يراه في غيره. وانّ المسألة تتعقد أكثر حين تاخذ الكتابة منحى البحث عن الخلاص من الوضع الاجتماعي الذي تعاني منه المراة.

مما لا شك فيه بانّ قمع المراة اجتماعي وثقافي في أساسه، وتناول موضوع المراة كونه يعالج اشكالية مطروحة مفتوحة – طالما تحدثت عنها الشرائع السماوية والقوانين الوضعية وتناولتها البرامج والخطط السياسية– ولكن معظم الدراسات التي تعالج قضايا المراة لا تجرؤ على تقديم صورة سلبية عن ذلك الوضع وتنتهي بتوجيهات لسياسة الدولة. اما عالم الادب بما انه ادب، يمتاز بالحرية في معالجة المواضيع الاجتماعية والجرأة في اعطاء اي صورة ذهنية مرغوبة للواقع الاجتماعي كما يتخيله الروائي، فيستطيع ان يفضح الوضع الراهن المسيطر بكل اجزائه ومقوماته ودعائمه بحرية تامة وبصورة مؤثرة مثيرة.

وما نهدفه من هذه القراءة، هو إجلاء بعض الجوانب من اوضاع النساء ومعاناتهن وبخاصة مظاهر التمييز والعنف الممارس ضدهن على المستوى القيمي والرمزي. ونسأل ماهي السياقات التي ساعدت في تصاعد الاهتمام بالتمييز والعنف تجاه المراة؟ ما تجليات هذا الاهتمام في رواية "شرفة العار" وكيف طُرحت قضايا التمييز والعنف فيها؟ كيف استطاعات الرواية ان تعالج مسالة اضطهاد المراة وما هي الاساليب التي اتخذتها من اجل الكشف عن الم المراة؟ ونحاول تغطية هذه القضايا بدراستنا رواية "شرفة العار" لابراهيم نصرالله على ضوء الاتجاهات النسوية.

"شرفة العار" هي الرواية الثالثة لابراهيم نصرالله من ضمن مشروعه الروائي"الشُرُفات"، والذي يضم عددا من الروايات لكل منها استقلالها التام عن الروايات الاخرى. هي شرفات اراد الروائي ان يطلّ منها على واقع الحال الذي تعيشه المراة العربية وخصوصا في الطبقة المتوسطة والفقيرة. وهو يتصدى لمعالجة قضية راهنة شديدة الحساسية ومثيرة للقلق، هي "جرائم الشرف"، ضحاياها نساء ظُلموا من الاهل والمجتمع وعاداته وتقاليده وأُطره الثقافية البالية.

النقد النسوي

قد تملك النظرية النسوية تلك الصلة بالقضايا السياسية التي تتعدى جدران الجامعات، كونها متاثرة بالتحركات الاجتماعية. وانّ ما يميزها هو دراسة انماط السلطة ووجوه الظلم والتهميش، وسياسات انتاج المعرفة ونشرها واستهلاكها في كافة حقول الحياة اليومية. فانّ تعامل الدراسات النسوية مع النظرية الادبية يؤدي الى حركة ثورية، خاصة انه بين هذين الحقلين توجد تركيزات مشتركة، وعلى وجه الخصوص في السلطة، والتمثيل، والثقافة الشعبية، والهوية.

انّ النظريــة النســوية تتكــون مــن ثلاثــة عناصــر: اولا ان نســاء العــالم يــواجهن أنماطـا متعـددة مـن الظلـم والاسـتثمار، وثانيـا الالتـزام بمعرفـة هـذا الظلـم وتبيـين أسـبابه، وثالثـا توجيـه الجهـود الفرديـة والجماعيـة لإنهـاء هـذا الاضـطهاد فـي كافـة صـوره. وكـل من يقتنع بهذه المفروضات الثلاثة، يعتبر نسويا(شهابي، ٢٠١٤، ٤١٢).

ونجـد النقـد الادبـي يطـرح السـؤال فـي هـذا السـياق مـن جهـة التمثيـل وفـي اطـار النظـام الرمـزي. ولكـي نسـتخدم النظريـة النسـوية كأرضـية لدراسـة الروايـة المختـارة، علينا أن نوضح بعض القواعد في هذا النقد.

«بابسـط صـورة أنّ النظريـة النسـوية هـي مجموعـة مـن الكتابـات التـي تحـاول أن تصـف وتشـرح وتحلّـل ظـروف حيـاة النسـاء. فـانّ النظريـة النسـوية هـي "طريقـة لرؤيـة العـالم". إنهـا تقتـرح اسـتراتيجيات لتحسـين الظـروف التـي تعـيش وتعمـل النسـاء فـي ظلّهـا»(كولمـار وآخـرون، ٢٠١٠، ١١). ومـن الأسـس التـي تبنـي اسـتراتيجياتها عليهـا، هـي تشـهير الصـورة الثقافيـة للتمـثلات التـي أصـبحت طبيعيـة وبيولوجيـة وذلـك بتأكيدها على النوع الاجتماعي أي الجندر.

تعتقـد النسـوية أنّ الأنوثـة[1] مثلهـا مثـل الرجولـة[2] لا تكتسـب معناهـا مـن البويولوجيـا أي مـن الوراثـة، وإنمـا مـن البنيـة الثقافيـة التـي تنتمـي اليهـا. فهـي صـفة مكتسـبة تُبنـى داخـل إطـار الثقافـة. وهـذه الرؤيـة فتحـت الطريـق علـى ظهـور تيـار اسـتطاع أن يخلـق حقلا علميا جديدا يبحث فيما يسمّى ب"الجندر"[3] أو"النوع الاجتماعي".

إن نـتكلم عـن الجنـدر عوضـا عـن الجـنس يعنـي أنّ المـراة مثلهـا مثـل الرجـل لا تولـد امـراة وانمـا تصـبح امـراة، كمـا تقـول سـيمون دي بوفـوار. وهـذا يعنـي أن شخصـية الفـرد او هويتـه لاتعطـى بالوراثـة وانمـا تبنـى وتكتسـب. وهـذا يعنـي أن فلسـفة الجنـدر تتنكـر لتـأثير الفـروق البيولوجيّـة الفطريـة فـي تحديـد أدوار الرجـال والنسـاء. وتـرى أنّ الصـورة التـي ينظـر اليهـا المجتمـع للـذكر وللانثـى هـي صـنعة ثقافيـة والأسـلوب الـذي يتوقعـه منهمـا، يرجـع الـى تنظـيم المجتمـع ولـيس الـى الاختلافـات البيولوجيـة. بعبـارة اخـرى، انّ "الجـنس" يشـير الـى التقسـيم البيولـوجي عنـدما نقـول ذكـر وانثـى، ولكـن الجنـدر يشـير الـى مجموعـة صـفات وخصـائص غيـر بيولوجيـة والتـي تتشـكل فـي ارضية الخطاب[4]، حيث هذه الخصائص تتلبس بالثقافة وتُعرف بالذكورة والانوثة.

---

[1] - femininity
[2] - masculinity
[3] - gender
[4] - discourse

اذن في هذا السياق، ونسبةً الى الجندر، وهي اساسا مقولة سياسية وثقافية تختلف عن الجنس باعتباره معطى بيولوجيا، وتعني الادوار والاختلافات التي تقررها وتبنيها المجتمعات بين الرجل والمراة بحيث يتبين لنا ان الاختلاف بين الرجل والمراة مبني ثقافيا وايديولوجيا وليس نتيجة حتمية بيولوجية(بن سلامة وآخرون، ٢٠٠٥، ١٤). فجاءت النسوية تعترض بشدة على هذا التصور القائل بان الوضع الطبيعي هو أن يكون الرجل عائل الاسرة وان يعد السلوك الذكوري التقليدي سلوكا غريزيا، لان النسوية ترى ان الرجال والنساء تحرّكهم الدوافع الاجتماعية منذ المولد لقبول هذه الادوار والاشكال السلوكية بحسبانها طبيعية(جامبل،٢٠٠٢، ٢٧٩).

على كلٍّ ما يهمنا من هذه الرؤية، هو أن هذا التيار يأتي من هذا المنطلق لكي يزلزل دعائم الهيمنات التي ترسخت من خلال التطبيع، راميا ان يزيل قناع "الطبيعي" او "البديهي" عن وجه الثقافات. فانّ تشهير وفضح عملية التطبيع هي محطة اساسية وضرورية لبناء الهوية. لانّ اول ما يجب ان نقوم به لبناء "المعنى" هو ان ندرس هذه الظواهر التي تبدو مطلقة وطبيعية وثابتة وذلك بارجاعها في كل مرة الى الخطاب اي الى التاريخ الثقافي. فقد تُبين التجارب انّ الطبيعة الانسانية ليست سوى مجموعة من الاستعدادات التي لايمكن لها ان تتحقق الا داخل المجتمعات وعبر الثقافة. فالقول انّ المرأة مرأة وان الرجل رجل وان العبد عبد، خُلقوا هكذا منذ الولادة، هو ليس فحسب ادعاءً باطلا وانما هو ايضا مناورة تعمل على التضليل وتغييب الحقائق بطمس كل ما هو تشكّل عبر التاريخ والثقافة وفي ظلّ السلطة.

الكتابة النسوية والكتابة النسائية

من المسلّم ان النسوية اتجاه ذو مراحل وطيف عريض مع تغيرات واختلافات شتّى. لكنها تتفق معظمها في البحث عن حقوق المراة وكيانها الانساني، وتحارب العالم الذي تكون المراة فيه ذات أدنى، تخضع لمصلحة الرجل. فانّ النسوية بغض النظر عن تشعباتها المتعددة عبر التاريخ، تطالب بقيم عادلة إنسانية تحكم المجتمعات دون أن تهمش فئة وتظلم أخرى، وأنها ببساطة تتحدث عن أهم القيم الإنسانية وهما العدل والإنصاف.

وهنا لابد من ملاحظة أساسية لا يمكن القفز عنها، وهي أنّ النزعة النسوية لا تعتبر الرجل عدوا لها. ذلك لانّ وكما يشير عبدالرحمن منيف: إن الحركات النسوية، السياسية منها على وجه التحديد، والتي تعتبر هدفها تحرير المراة، وهي

في الاغلب تضم النساء فقط وتتوجه الى المراة وحدها، هذه الحركات، لم تستطع أن تحقق مكتسبات حقيقية للمراة، لأنها كانت تضع المراة في مواجهة الرجل، وتقسم المجتمع بشكل جنسي (منيف،٢٠٠٧، ١٥٦)

وانّ الادب النسوي «هو احتجاج على المقاييس الذكورية ومحاولة تصحيحها عن طريق تقديم رؤية جديدة، وغير مألوفة وحقيقية بالقدر نفسه. وهي صورة متصادمة بالضرورة مع الأحكام والمقاييس العتيقة»(الأعرجي،١٩٩٧، ٣٤). «والكتابة النسوية هي التي تحقق كشف وإزاحة عناصر المنظور الذكوري الشمولي لصالح صورة المراة ووضعها المرتجى» (م.ن، ٣٦). فبناءً على ما سبق عن النقد النسوي، هل بامكان الرجل أن يكون نسويا؟

انّ القول بكتابة إبداعية نسائية تمتلك هويتها وملامحها الخاصة يفضي الى واحد من الحكمين: اما كتابة ذكورية تمتلك مثل هذه الهوية ومثل هذه الخصوصية، وهو ما يردّها بدورها الى الفئوية الجنسية، فلا تعود صالحة كمقياس ومركز، وامّا كتابة بلا خصوصية جنسية ذكورية، اي كتابة الاطلاق، كتابة خارج الفئوية مما يسقط الجنس كمعيار صالح للتمييز الى ذكوري ونسائي(سعيد، ١٩٩١، ٨٦).

اذن ينبغي التفريق بين كتابة النساء والكتابة النسوية، فالاولى ممكن ان تتم بمنأى عن فرضية الرؤية الانثوية للعالم و للذات الا بما يتسرّب منها دون قصد وقد تماثل كتابة الرجال في الموضوعات والقضايا العامة، امّا الثانية فتتقصد التعبير عن حال المراة، استنادا الى تلك الرؤية في معاينتها للذات والعالم ثم نقد الثقافة الابوية السائدة، وتسعى الى بلورة مفاهيم انثوية من خلال السرد وتفكيك النظام الابوي (ابراهيم، ٢٠١١، ٥).

والادب النسائي او ادب المراة هو إحالة الى انّ المبدع (الكاتب) امراة. ومصطلح الادب النسوي باعتبار انّ لفظة النسوي لفظة تحمل خطابا ايديولوجيا يسعى الى خلخلة المفاهيم السائدة حول المراة في الخطاب الذكوري المهيمن. والذي ليس بالضرورة ان يكون مبدعه انثى اذ بامكان الرجل ان يكتب نصا نسويا(بن بوزة، ٢٠١٦، ٢٢).

اذن عندما نقول "الادب النسائي" نقصد ما تكتبه المراة وتنشره، اذ اطلق في الاساس لتصنيف ما تكتبه النساء، اي نسبته الى جنس كاتباته. ولكن الادب النسوي بصورة عامة يتبنى **ادانة الكبت والتسلط والتهميش**، ذلك لان الفن يهبنا هذه القدرة على التعبير. فانّ الابداع الادبي ومنه الروائي يرفض التقسيم الجنسي في التعبير، فالنسوية يمكن ان تكون بلسان الانثى، و يمكن ان تكون بلسان الذكر.

فالادب النسوي ضرب من التأليف يكتبه صنف من النساء الكاتبات، وصنف من الرجال الكتّاب، اما موضوعه فكل ما يمكن ان تبوح به المراة. «فليس لدينا نقد نسوي يتصف بالنقاء، لانّ هذه الامور تمكن الرجال من انتاجها» (احمد محلم، ٢٠١٦، ٤٤). فالنسوية ليس شرطا ان ينطبق على المبدعة الانثى، وانّ الادب النسوي او النسوية هو ليس البحث عن الخصائص التي تميّز ادب المراة عن ادب الرجل.

وتاكيدا على ذلك، انّ النقد النسوي غير قادر على فك ارتباطه بالميراث الذكوري لبناء جزيرة نقدية نسوية معزولة، لا تلوث بالفكر النقدي والاستعارات النقدية الذي انجزه الرجل بالاساس. وان من الصعب تكوين ميراث بديل خاص بالمراة، حتى لو ركزت الناقدات النسويات على كتابة المراة وتجاربها؛ لان المراة لا تعيش في جزيرة معزولة في عالم الثقافة والنقد، ولا تأكل طعامها على مائدة خاصة.

مظاهر العنف وجرائم الشرف في رواية شرفة العار

«يشير تقرير التنمية البشرية للامم المتحدة لعام ٢٠٠٩ الى ان عدد ضحايا(جرائم الشرف) في العالم سنويا هو ٥٠٠٠ امراة؛ وفي الاردن، حيث كُتبت هذه الرواية تشير الارقام الرسمية الى وقوع ١٥ الى ٢٠ جريمة قتل سنويا؛ ويشير تقرير الامم المتحدة للتنمية الانسانية العربية ٢٠٠٩ الى ان عدد جرائم الشرف(الاحصائيات المتاحة) في مصر كان ٥٢ جريمة في العام ١٩٩٥، وفي العراق ٣٤ جريمة في العام ٢٠٠٧، وفي الاردن ٢٨ جريمة في العام ٢٠٠٥، وفي لبنان ١٢ جريمة في العام ١٩٩٨.

انّ الامر المفزع في كتابة رواية كهذه، هو ان تقوم بكتابتها في الوقت الذي تتساقط فيه الضحايا حولك!»(نصرالله، ٢٠١٠، ٥).

هكذا ابتدأ "ابراهيم نصرالله" في روايته "**شرفة العار**" بتقرير للأمم المتحدة عام ٢٠٠٩، عن عدد ضحايا جرائم الشرف في الاردن ومصر والعراق ولبنان. وينهي الرواية برسالة وداع من الضحية "منار" بخط يدها الى والدها ووالدتها واخويها والعائلة جميعا.

تتناول الرواية قصة فتاة اسمها منار. انها ابنة وحيدة بين ثلاثة شبان لأب كان عاملا في مصنع الاسمنت قبل أن يختار تبديل مهنته لأنه صار يخشى أن يتحول إلى عمود اسمنتي. يختار أبو الأمين مهنة جديدة وهي شوفير او سائق

تاكسي. هذا التاكسي الذي اهتم أبو الأمين أن يكون في حوزته بأسرع وقت ممكن ليوفر على ابنته الحبيبة مشاق الطريق في ذهابها وايابها من و الى الجامعة.

لم يفلح شقيق منار الأكبر، أمين، في اكمال دراسته ومع فشله في الحصول على رخصة قيادة عمومية يقوم الأب بتضمين التاكسي ليونس والذي يتولى كذلك مهمة توصيل منار الى جامعتها. في الأثناء تواصل منار الالتقاء بعصام زميلها الذي تنشأ بينها وبينه علاقة حب لا تتعدى الذهاب الى المول او السينما. بعد ان يفقد أمين عمله في محطة الوقود يبدأ في مرافقة يونس ليلا ونهارا ليعرف منه أسرار العمل على التاكسي، يقوم أمين بتحصيل الرخصة ومن ثم يستدين مبلغا من المال من يونس. ولكن رفض أمين لإعادة المبلغ ليونس سيكون هو السبب في ان يونس سيقرر الانتقام من امين بابشع طريقة ممكنة الا وهي اغتصاب اخته. لا ذنب لمنار الا ان وقعت فريسة ليونس، اغتصبها انتقاماً من اخيها.

تخفي منار ما حدث معها ويسوء وضعها أكثر حينما تدرك أنها غدت حاملا ولكنها تتأخر في اعلام عائلتها خوفا ربما او بدافع الصدمة. تحاول العائلة جهدها لحل المشكلة غير ان قابلة الحارة تعتذر عن مساعدتها لأن الوقت قد فات؛ ويحاول أمين تدبير المال اللازم لمساعدة اخته في الاجهاض، ولكن الطبيب يرفض ذلك في آخر لحظة مما يدفع أمين الى الانسحاب تاركا لنساء عائلته – أمه وزوجته الأولى نبيلة– تدبير الموضوع على عاتقهن. ولكن تنتهي الرواية و امين يطلق النار على أخته ليريح نفسه ويريحها كما فترفع راية بيضاء تحل محل السوداء.

انّ العنف هو سلوك عمدي موجه نحو هدف، سواءً لفظي او غير لفظي ويتضمن مواجهة الاخرين ماديا او معنويا ومصحوبا بتعبيرات تهديدية، وله اساس غريزي. وهناك من يعرّف العنف بانه الايذاء باليد او باللسان، او بالفعل او بالكلمة، في الحقل التصادمي مع الآخر، ولا فرق في ذلك ان يكون فرديا او جماعيا. فالعنف سلوك ايذائى، قوامه إنكار الآخر كقيمة متماثلة للانا او كقيمة تستحق الحياة والاحترام، ومن مرتكزه استبعاد الاخر عن حلبة التغالب، اما بخفضه الى تابع، واما بنفيه خارج الساحة(اخراجه من اللعبة) واما بتصفيته معنويا او جسديا. اذن معنى العنف الاساسي في المنظور الاجتماعي والسوسيولوجي هو عدم الاعتراف بالاخر، رفضه وتحويله الى الضحية(علي، ٢٠١٤، ٨).

«والعنف الجنسى هو الفئة الوحيدة التي تبلغ نسبة النساء الضحايا فيها ثلاثة اضعاف ونصف الضعف مقابل الضحايا من الرجال. يستدل من تقسيم المعطيات

حسب الجندر انه بين العام ٢٠٠٠ و ٢٠١١ بلغ عدد حالات العنف الجنسي ٦٠ حالة لكل ١٠٠ الف مراة»(م.ن، ٨٤). وجاء الروائي ليقدم مشهدا منزليا للعلاقات بين الجنسين في ظلّ النظام الابوي في رواية مقسمة الى اربعة عناوين رئيسة:

١. ما كان عليَّ ان اتوقف ابدا عن الرقص
٢. خط احمر رفيع
٣. الراية السوداء
٤. الليل الطويل

وما يلي مقتطفات من الرواية وهي ثلاثة مشاهد ذات تاثير واهمية تستخلص الرواية فيها:

«وفي اللحظة التالية، حين رفعت قدمها، بدات قلوبهم تخفق، وكل واحد منهم يدعوها للتقدم نحوه. سارت ثلاث خطوات مرتبكات والقت بنفسها بين يدي اخيها امين. اسند ابوالامين ظهره الى الحائط، ونظر الى ابنه الذي كان قد تجاوز الثانية عشر من عمره وقال له:عليك ان تتذكر جيدا في المستقبل ، ان هذه الصغيرة قد اختارتك لتكون سندها، وانا فرح بهذا، لانني لن اعيش لها العمر كله، تذكرهذا الامر جيدا واياك ان تكون اقل من هذا. هزّ امين راسه. كان اول كلام كبير يسمعه من والده، يخاطبه كرجل. رفع امين اخته عن الارض واجلسها على ركبتيه بفرح.»(نصرالله، ٢٠١٠، ٣٩).

«في حفلة زفاف امين، في اللحظة التي كان فيها امين ماسك بيد عروسه (الثانية) التقى بمنار وجها لوجه ولم يكن يلزمه الكثير من الفطنة ليفهم انها كانت تبكي لكن مالم يفهمه هوذلك الشق الكبير في فستانها عند الرقبة»(م.ن، ١٠٦). **«صاح عمّها سالم: "هي لك"! في اللحظة التي خرج فيها امين وبيده مسدسه.. فاندفع ووضع المسدس على جبينها، اغمض عينيه واطلق النار»**(م.ن، ٢٣٣).

في الفصل الاول يضع الروائي القارئ في اجواء الاحتفال بتخرج "منار"، ثم ينتقل بنا الى مرحلة ما قبل ميلادها ورغبة ابيها العارمة في انجاب فتاة. "منار" الابنة الوحيدة بين ثلاثة شبان لأب كان عاملا في مصنع الاسمنت واصبح بعد ذلك سائق تكسي. هذا التكسي الذي اهتم "ابو الامين" ان يسهل لابنته مشاق الطريق سيكون السبب في مأساتها.

«كان يصرّ ابو الامين على ان يوصلها وان يراها تدخل البوابة الواسعة الكبيرة، عند ذلك كان يتنفس ملء صدره. لكن تغيّر كل شي ء فجاةً، راحت قامته تتلوى الما وفي النهاية لم يعد باب السيارة قادرا على اسناد قامته»(م.ن، ١٦).

يقوم الاب بتضمين التكسي ل"يونس" والذي يتولى كذلك مهمة توصيل منار. بعد ان يفقد امين (الشقيق الاكبر لمنار) عمله، يبدأ في مرافقة "يونس" في التكسي ثم يستدين منه مبلغا. وانّ رفضه لإعادة المبلغ سيكون هو السبب ان يقرر "يونس" الانتقام من "امين" بأبشع طريقة وهي اغتصاب اخته بالقوة والتهديد، فإنها تقع فريسة ل"يونس"، الطعنة التي يوجهها رجل الى رجل:

"- **اريد النقود الذي اعطيتك اياها.**

- نقود؟! اي نقود؟ انا لم اخذ منك شيئا.

- بسيطة؛ ولكن اذا كنت تتخيل انني سأتي لاطرق باب بيتكم مثل شحاذ لأطلب حقي، فانت واهم.. لن اطلبها منك مرّة اخرى، تأكد من هذا، وتأكد انك حين تنسى تمامًا انك اخذتها، ساذكرك بشيء لا يمكن ان تنساه ابدًا.."(م.ن، ٨٩).

وبعد اغتصاب منار قال يونس لها: "**قولي لاخيك انّ مافعلته هو هديتي له بمناسبة زواجه، قولي له: إن كان رجلا، فليحاول الوصول اليّ**"(م.ن، ١١٤).

تخفي "منار" ما حدث معها عن عائلتها وترفض طلب حبيبها "عصام" للزواج منها دون مبرر، اذ يسوء وضعها اكثر حينما تدرك انها حامل. تحاول العائلة ان تحلّ المشكلة غير ان الاطباء اعتذروا عن مساعدتها لان الوقت قد فات. ثمّ يتم حجز"منار" في قسم الشرطة بعد تعرضها لمحاولة قتل فاشلة من "امين". حاول الكاتب هنا ان يجمع كل ما امكنه من القصص المختلفة المرتبطة بقصة منار فيما سنذكرها في محلها. وبالتالي قُتلت"منار" لغسل العار، بتحريض عمّها "سالم" الذي وضع الراية السوداء على شرفة بيت اخيه استجابةً لقيم مجتمعية بالية قائلا:

«هذه الراية لن ينزعها من مكانها غير ذلك الذي سينتزع روح تلك الساقطة التي لوّثت شرف العائلة ونشرت سيرتنا الشائنة على كل لسان! كان يمكن ان تضعوا حدّا لو انكم تصرفتم كرجال!» (م.ن، ١٨٩) **«استدار سالم تاركا اخاه نصف قتيل على كرسيّه والقى نظرة احتقار على ابن اخيه.»** (م.ن، ١٠٩).

انّ اللحظات التى نستطيع فيها ان نعرّف انفسنا - بصرف النظر عن النوع - هي لحظات نستخدم الالفاظ والعبارات لتعريف انفسنا. فعلى اساس الافتراض بان الخطاب تشكيلة من المفردات التى يمكن ان نختار منها لتعريف انفسنا، فانّ الفرد ليس الا صورة ذاتية من مجموعة مفردات. فحين يصيح العمّ ويخاطب الرجال،

لايقصد جنس الرجال بل يخاطب نوع الرجال. وفي تلك الثقافة، انّ الرجال هم من يتميزون بالشرف، والقيادة، والعلو، والسيطرة، والقوة، والتدبير وما الى ذلك من الميزات التي تحلو وتليق بالمهيمِن. وبدعم هذا النظام الرمزي الذي تمّ تشكيله بهذه المفردات، من حق الرجل ان يذبح المراة صيانة للشرف، لانه هو الذي من حقه ان يضع النقاط على الحروف ويجب ان يسيّر العالم بافكار واخلاق يسنِّها هو، فيربط شرف اخته وامه وزوجته بشرفه، حيث تُذبح من تعصي الاوامر:

« "**سيذبحونها**"**! تمتمت امها هاذية** "**سيذبحونها**"**، قالت وكأنّ منار لم تكن هناك**»(م.ن، ١٤٣).

لقد تمّ قتلها بيد اخيها "امين"، والذي كان السبب المباشر في كل ما جرى لها، وهو المؤتمن عليها وخاصة في ظروف عجز والده. ولكنّه لص يسرق الزبائن في محطة الوقود التي يعمل بها فيطرده ربّ عمله، ليجلس في البيت عاطلا عن العمل، وهو يتردد على بيت "تمام" المراة اللعوب في الحي، وتكتشف زوجته "نبيلة" ذلك فيتستر على فضيحته بتهديد زوجته بالطلاق وبالزواج من تلك المراة، وحين تتلقى زوجته ذلك "التهديد" تستلم تماما اذ تقوم هي بنفسها لتخطب تلك المراة لزوجها:

"اندفعت "نبيلة" نحو بيت "تمام" في اخر الليل وراحت تطرقه بعنف، الى ذلك الحدّ الذي لم يجد معه امين حلا سوى ان يفتح لها الباب بنفسه. امسك نبيلة من شعرها وجرّها للداخل: "**اتريدين ان تسببي لي فضيحة؟؟**" وفي اللحظة التي همّ بان يصفعها فيها اخفت وجهها بيديها تحميه..

- **لديكم حلّان: الاول ان اطلق نبيلة. او ان تذهبوا لخطبة تمام الان..**
- "**ساخطبها لك**"**؟ قالت نبيلة،** "**ساخاطبها لك**"**؛قاطعة الطريق على اي كلام يمكن ان يقال**(م.ن، ٧٩).

قام ابراهيم من خلال وضعه كل خبراته الجمالية والمعرفية والابداعية في شخصيات الرواية وخاصة شخصية "منار" التي اصرّ والدها على تعليمها، وقدم لها الدعم اللازم حتى تخرّجها واستلامها وظيفة كمشرفة اجتماعية. كان ابوها حريصا على ابنته، ولا يدعها تقطع الشارع من شدة حرصه، فاستعان بسائق لسيارته وهو"يونس":

«**فجأة فتح يونس باب السيارة من الخارج، وفي اقل من ثانية احسَّتْ منار ببرودة نصْل ذلك الخنجر على رقبتها** "**سأذبحك اذا تنفَّستِ**"..» (م.ن، ١٢٢).

وبعد ذلك اصبح مرور اي فرد من افراد العائلة في الشارع بمثابة حفلة تعذيب له:

«في الوقت الذي بدا الجيران يرون في الراية السوداء نذير شؤم مقيم. مساحة الحرية التي كانت متاحة لفتيات الحارة تقلصّت اذ لم يعد من السهل عليهن التحرك او الغياب طويلا عن منازلهن وغدا هبوط الليل قبل عودتهن جرسا ينذر فضيحة اخرى!» (م.ن، ٢٩٦).

انّ اهم ما يحول دون طلب المراة المساعدة، هو الخوف من الوصمة الاجتماعية، وايمانها العميق بانه ينبغي عليها ان تكون الضحية، وايضا الخوف من تزايد العنف الجسدي ضدها. مخرجها الوحيد اذن توجهها للعائلة على امل ان تدعمها بصمت ودون ضجيج. ولكن عندما تجرأت "منار" على طلب المساعدة، واجهت معاملة استخفاف مهينة نتاج السيطرات الذكورية داخل المجتمع، وذلك كله لجانب مظاهر التسامح مع الرجل الذي فعل الجريمة.

تّم حجز"منار" في قسم الشرطة بعد تعرضها لمحاولة قتل فاشلة من امين لتبدأ معاناة جديدة في حياتها حيث يسلط الكاتب الضوء على المعاملة اللاانسانية التي تتلقاها ضحايا هذه الحالات وحجزهن مع المتهمات في جرائم اخرى. جمع الروائي هنا كل ما امكنه من القصص المختلفة المرتبطة بقصة منار مثل "شامة" التي قتلت الطفل الذي حملت به ابنتها بعد ولادته:

حدّثتها شامة عن ابنتها الشابة التي فوجئت بها ذات يوم تصيح الما وحين قالت لها انها ستمضي بها للطبيب.. وبعد نصف ساعة وجدت شامة نفسها مع تلك الكارثة.. كانت ابنتها في حالة وضع! اغلقت الابواب والشبابيك، ضربت راسها بالحائط،صرخت مع ابنتها، شتمت، رفعت الدعوات للسماء ارتعبت وهي تتوقع عودة ابنائها وزوجها في اي لحظة: "سيذبحونها"!.. واصلت المولودة بكاءها، وسمعت الخطوات تقترب اكثر فاكثر، نهضت.. حدّقت في وجه الصغيرة الدامي برعب، وضعت يدها على فمها.. وخنقتها(م.ن، ٢١٥).

وقصة "لبنى" التي اختارت ان تفقد عذريتها مع حبيب وعدها بالزواج وكانت النتيجة ان صارت تقضي في الحبس حماية لها من اهلها الذين حاولوا قتلها قبلا. وقصة "تغريد" التي قتلها اخوها الذي اغتصبها. انّ السكوت عن العنف والهتك والذي يتالف من مزيج من مشاعر العار والخزي والصدمة والخوف، من ضمن الانماط التي تاثرت باحترام الاعراف الاجتماعية ولتجنّب تحولها الى مشكة اخرى تُضاف الى المشكلة الاصلية. ف"تغريد"بعدما تخبر اخاها بانها ستبلغ امها عمّا يفعله، اخبرها بانها سيقتلها ويقطعها قطعا قطعا اذا فعلت ذلك. جاءت "تغريد" الى المدرسة لتسرد ما تعاني منه الى "منار" اذ تسأله:

"اي مشكلة تلك التي يمكن ان تكسر غصنا اخضر الى هذا الحد؟ وبعد نصف دقيقة بدأت تتكلم تغريد دون توقف، شرحت لها كل شيء دفعة واحدة كما لو انها تخشى تتراجع كما لو انها تريد ان تتخلص من ذلك السمّ الذي تجرعته.." (م.ن، ٩٨).

وجدت "منار" نفسها وفي بدايات عملها مع مشكلة تفوق روحها وجسدها ووعيها. قالت لها ان لا تهدديه بشيء واخبري امك واخويك بما جرى.. الى ان اتوا بخبر قتل تغريد: **ناولتها الجريدة:**

"تغريد الصغيرة تلقت تسع طعنات على عتبة الباب وهي تستغيث"

وجرى تحويل المجني عليها الى الطبيب الشرعي حيث تبيّن انها حامل في شهرها الثاني، وبعد اجراء الفحوصات اللازمة تبيّن ان القاتل هو والد الجنين" (م.ن، ١٢١).

لم تقل لاحد من اهلها انها ذاهبة للمحكمة لتُدلي بشهادتها.. في الممر بدا معتما، شعرت منار بان عليها ان تتحسس طفلها بيديها. بمجرد ان سمعت السؤال الاول قالت كل شي ء للقاضي دفعة واحدة كما لو انها شريط تسجيل احتفظ بكل كلمة او تنهيدة قالتها تغريد.. محطّمة نهضت وعندما وصلت الباب، عادت وتوقفِت. سألها القاضي: هل تذكرتِ شيئا آخر؟ لاتخافي، فأنت ستكونين في حماية القانون!

ردّت: انني حامل!" (م.ن، ١٢٤-١٢٧).

«تجربة ان يكون الانسان موضوعا للقتل فهي تجربة مذهلة، اذ تحت ظلالها الرهيبة تكتشف المراة هشاشة كينونتها وعبثية وجودها، وانفصال اجزاء كينونتها، واللاقيمة المطلقة التى تتصف بها ككيان انساني»(الأعرجي،١٩٩٧، ١٨).«معطى مقلق هو ان نصف ضحايا الاعتداءات الجنسية هن من القاصرات واكثر من ٤٠% من مخالفات الجنس تتم داخل بيت الضحية، او في بيت المعتدي من قبل اشخاص تعرفهم الضحية وتثق بهم» (علي،٢٠١٤، ٨٥). وهنّ كما جرى في قصص هذه الرواية غير قادرات على الهروب من العلاقات العنيفة او يجدون انفسهن مسجونات داخل البنى الاجتماعية والمؤسسات التي تدعم الانتهاك. بما انّ المؤسسات هي التي تقسم الادوار والمهام وهي التي ترسم الفضاءات بين الجنسين. فهنّ اما ان يخترن عدم الاعتراف بحدوث الاساءة واما ان يحاولن الرجوع الى مواقع معذبيهم ضمن خطابات القناعة والصمت والتمكين. الخطابات التي بالدرجة

الاولى نظمت عبر سياسات تنظيم الاسرة ودُعمت من قبل القوانين والاحكام. فهكذا تُخلق طبقة من القمع لا يمكن للنساء الوقوف في وجهها.

و ربما من اسباب "التحرّش" بنظام منع التحرّش معارضة البعض تقنين الاحكام القضائية او عدم الرغبة بالاعتراف. فهناك في بعض البلدان تعطى المشروعية للعنف ضد المراة والطفل، وهذا مؤشر له دلالات خطيرة. فلن تحصل المراة على حقوقها طالما الرجل هو المتحكم وحده في اقرار الانظمة والقوانين ولوائحها التنفيذية(العلمي، ٢٠١٥، ٦٣).

وهكذا تخلق الثقافة عادةً ظروفا شرطية يستعمل المسيطر بموجبها استراتيجيات السيطرة لتحقيق غاياتهم. وانّ العنف لايمثل ميدانا ليس فيه سوى المعتدي والضحية. بل انه غالبا يمثل جزءا من الخطاب العرفي المقيد بثقافة محددة. فتشتغل المؤسسات كآلة قوية في ترسيم الحدود، وتوزيع الادوار، وفرض هويات تعبر بطريقة مباشرة او غير مباشرة عن الثقافة التقليدية المهيمنة. هذه المؤسسات تشمل المدرسة، والجامعة، والمؤسسات الدينية والاعلام والقانون وبالتالي اللغة، وهي من ابرز الانظمة التي ترسم حدود الادوار والوظائف. ففي مجتمع ذكوري نجد المراة ان لا حول ولا قوة لها الّا بعد رضا الرجل بذلك، فهكذا ابتداءً باصغر الحلقات (الاب، الاخ، الزوج)، وانتهاءً باوسعها(القوانين، الاعراف، المؤسسات)، يتم خلق كيان المراة، ككيان تابع خاضع يقرّ بخضوعه ولايجد القوة لمواجهته مادامت العلاقات الاجتماعية وقوانينها واعرافها صنعت من مادة التهميش والتمييز.

يشير مصطلح العائلة (المشتق من عال، يعيل) الى علاقات الإعالة والاعتماد المتبادل. تتجلى الوحدة هذه بتوحد الهوية (identification) بين افراد العائلة فيشتركون معا بانجازاتها واخفاقاتها، بانتصارها وفشلها، بشرفها وعارها الخ. من هنا ان الفرد في العائلة يكون عضوا اكثر منه فردا مستقلا. بموجب هذه العضوية والتوحد في الهوية، يصبح كل فرد في الاسرة مسؤولا ليس عن تصرفاته الشخصية فحسب بل عن تصرفات الاخرين. من هنا مثلا ان انحراف البنت في العائلات التقليدية خاصةً ينعكس على العائلة كلها ويمسها في الصميم ولا يمس الفتاة وحدها. هنا ترقد جذور"جرائم الشرف" التي هي بمثابة محاولة يائسة من قبل العائلة لاستعادة شرفهم.(بركات،١٩٨٦، ١٧٦). فالعنف الاسري هو كل عنف يقع في اطار العائلة ومن قبل احد افراد العائلة بما له من سلطة. ويعود العنف الاسري الى العائلة الابوية القائمة على التمييز الجنسي.

«انّ مفهوم الشرف نفسه، بالنسبة الى الرجال يجسد الاستقلالية والقدرة على ان يتصرف الرجل بنفسه ويقرر لنفسه والحق في جعل الاخرين يعترفون بهذه الاستقلالية»(ليرنر،٢٠١٣، ١٦٠). والقتل على خلفية ما يعرف خطا وظلما بـ " شرف العائلة " هو احد التجليات البارزة والخطيرة جدا للعنف ضد النساء. هذه المخالفة او الشبهة بمخالفة قواعد السلوك الابوي تعتبر تدميرا للسمعة الطيبة للعائلة ولذا يتم تبرير معاقبة المراة باشكال شتّى بدءا من سجنها في بيتها، ضربها واهانتها وحتى قتلها. هذا المفهوم المتجذر الذي يضغط العائلة "لتنظيف" سمعتها الطيبة، يبرر الافعال البشعة التي ترتكب لاحقا بحق المراة بل يزكي القاتل ويظهره كضحية تفاقم المشكلة اكثر.

وفي حالات كثيرة تتعاون العائلة مع القاتل من اجل صيانة البنية الابوية السائدة، ما يؤثر على الجهاز القضائى ايضا. عندما تطرح حادثة القتل على خلفية شرف العائلة يميل القضاة للتشديد على المفهوم التقليدي بان القتل شان عائلى والقاتل ضحية هذه التقاليد. وتصرف الجهاز القضائي في هذا الموضوع هو مساس بحقوق المراة حسب المواثيق الدولية الداعية للامتناع عن استخدام كل ادعاء خاص بالعادات والتقاليد كعذر للتهرب من مكافحة ظاهرة العنف ضد النساء وهذا مازال امرا مقلقا جدا(علي،٢٠١٤، ٨٥).

«فانّ المراة في المجتمع التقليدي مسؤولة ليس عن انحرافها وحسب بل عن انحراف الرجل فهي في نظر التقاليد اصل الغواية والفتنة والشر والتعاسة. لذلك عرف المجتمع جرائم الشرف ضد المراة وليس ضد الرجل»(بركات،١٩٨٦، ١٨٨). تناول ابراهيم هذه القضية بلغةٍ سهلة واضحة وباسلوب سَلِس اخّاذ، يستحوذ على كلّ قارئ، ويجبره على متابعة قراءة الرواية.

«في اخر تلك الليلة من شهر ايار، اطلقت منار صرخة صغيرة ضاعت في فضاء المهجع.. زغردت وداد "انه ولد" فملات المهجع الزغاريد»(نصرالله، ٢٠١٠، ٢١٢). **«كل من في السجن كنّ يعرفن ان وصولها لابنها من جديد يحتاج الى معجزة وليس اقل من ذلك؛ لم يكن في مخيّلتها انها ستتزوج من يونس في اي يوم من الايام ليعود ابنها اليها ولم يكن مسموحا لها ان تحمله وتمضي به الى اي مكان اوان تتزوج من رجل يقبل بوجوده معهما تحت سقف واحد.. او.. صاحت منار:"اريد ابني"!»**(م.ن، ٢١٣).

زرعت الرواية الامل بايجاد حلٍّ، وذلك بان تسافر بطلة الرواية بعد خروجها من السّجن، للعيش عند اخيها بعيدة عن مكان الجريمة. ترسل العائلة في طلب

الابـن "عبـد الـرؤوف" وهـو الاخ الـذي اختـار ان يعـيش حياتـه فـي الخلـيج بعيـدا عـن اهلـه. تختـار العائلـة احـد الوجهـاء الـذي يصـفه الكاتـب بـأنّ عباءتـه تـرفّ خلفـه، وغطـاء رأسـه يشـع نظافـة ليقـوم بـدور كفيـل منـار امـام السـلطات الا ان عمّهـا "سـالم" يـدبّر مكيـدة لإعـادة "منـار" وهـي فـي طريقهـا الـى المطـار فـي الاردن الـى بيتهـا فـي عمـان لـوداع امّهـا. وكـان قـد اوغـر صـدر اخيهـا "امـين" لقتلهـا حـال وصـولها الـى البيـت، حيث صاحَ به عمّه: **هي لك!**

"**اغمـض عينيـه واطلـق النـار**".. وهـو مشـحون ليرفـع العـار الـذي لحـق بالعائلـة، لانّـه لا يُسـتردُّ شـرف العائلـة المهـدور الا بقتـل المـراة علانيـةً، مـع انّـه هـو السـبب الوحيـد فـي حصـول هـذه المصـيبة التـي يسـمّيها عـارا. امـا المغتصـب للمـراة فغالبـا لا يمـسّ بـاذى؛ لانـه رجـل، والرجـل عِرضـه مُصـان. بـل وربمـا هـؤلاء الرجـال الـذين يرتكبـون هـذه الجريمـة يفـاخرون بهـذه الغـزوات المغريـة. هـذا يعنـي انّ القـيم والمبـادئ لاتُعـرف الا فـي حضـن الاجتمـاع والاعـراف السـائدة عليـه. فـاي عـرف ذلـك الـذي يعـدّون التعـدي فيـه فحولـة وانـه مـن خصوصـيات الرجـل لا يجـوز الاعتـراض عليـه؟ هـذا انقـلاب فـي القـيم لايسـتهان بـه، وانـه لايتحقـق بهـذه القـوة الا مـن خـلال ترسـيخه بـين الاعـراف ولايحلـل الا فـي اطـار نظـام الخطـاب الرمـزي المسـيطر علـى ذلـك المجتمع.

ان خطـورة العنـف، بوجـه عـام، جعـل المنـتظم الـدولي يوليـه عنايـة فائقـة مـن حيـث تعريفـه وتحديـد اركانـه وخصائصـه، وكـذا بحـث نتائجـه واثـاره فـي الافـراد والمجتمعـات. ومـن التعـاريف الرائـدة فـي هـذا المجـال تعريـف منظمـة الصـحة العالميـة الـذي يـذهب الـى ان العنـف هـو الاسـتعمال المتعمّـد للقـوة الماديـة او القـدرة، سـواء بالتهديـد او الاسـتعمال الفعلـي لهـا. واذا كـان هـذا التعريـف يشـمل العنـف كظـاهرة انسـانية عامـة تمـسّ الاشـخاص والمجتمعـات والثقافـات، فـان هنـاك فئـات اكثـر تعرّضـا مـن غيرهـا للعنـف والاضـطهاد لمـا تحملـه مـن هشاشـة فيزيولوجيـة واقتصـادية واجتماعية(عدوني،٢٠١٤، ٢٢).

«العنـف ضـد النسـاء هـى ظـاهرة عالميـة، تجتـاز الحـدود وتطـال كـل الشـعوب. والعامـل الرئيسـي خلـف انتشـار هـذه الظـاهرة هـو فقـدان المسـاواة بـين الجنسـين» (علـي،٢٠١٤، ٨٣). لانّـه علـى القاعـدة، يتجسـد العنـف بـين اصـحاب قـوى غيـر متكافئـة. وقصـة المـراة مـع المجتمـع الـذكوري تـزدحم بوقـائع المعانـاة، فهـي فقـدت فـي هـذا المجتمـع حقوقهـا الطبيعيـة والمدنيـة المكتسـبة، وهـي فـي الاعـمّ الاغلـب مـن الاحيـان فقـدت فيـه كرامتهـا. ومـا كانـت محنـة المـراة فقـط مـع دولـة تتحيّـف ضـد حقوقهـا

وتفرض عليها التمييز في المعاملة وانما كانت ومابرحت حتى اليوم، مع مجتمع ذكوري ينازعها الحق في المساواة الكاملة باسم الدين او باسم القانون او باسم العرف او باسمها جميعا. وهو عنف مزدوج جسدي ونفسي، حيث المجتمع يضفي على تفوّق الرجل شرعية دينية!(بلقزيز، ٢٠١٤، ١١).

نعود مرة ثانية قائلين انّ تصلب الاعراف والعادات، وانحسار افق المراة وغياب بدائل حقيقية امامها، غالبا ما يزيد تعميق الحرمان، لذلك فلايمكن فهم العنف ضد النساء الا بوصفه الية سلطوية لاعادة انتاج علاقات السيطرة والهيمنة بين الجنسين على الصعيد الاسري وداخل المجتمع العام. ففي المجتمعات التقليدية الذكورة والرجولة تشكلان مبدا للتنظيم المادي والرمزي، حيث كل مظاهر الوجود الاجتماعي والروحي تخضع لهذا المبدا(اساطير، رموز، علاقات اجتماعية وسياسية). هذه المجتمعات تقوم على سمو و علوّ الجنس المذكر في مقابل دونية وسلبية المؤنث(م.ن، ٢٧).

فصنفت المراة بسبب انتمائها لهذا الجسد في مرتبة لاحقة للرجل بل كثيرا ما وضعت معه كطرف مضاد في ثنائية متقابلة، تكون فيها الصفات الايجابية للرجل بينما تكون الصفات السلبية من نصيبها. و كنتيجة حتمية لهذا الموروث الثقافي الذى يتحكم في نظرة المجتمع للمراة والانوثة، كثيرا ما هربت المراة من انوثتها ولعنت هذا الجسد.(بن بوزة،٢٠١٦، ١١).

والنتيجة، انّ الاعراف هي التي تتكفل بتعيين الحدود، وانّ تصلب الاعراف والعادات وانحسار افق الامراة غالبا ما يزيد تعميق الحرمان، لذلك فلا يمكن فهم العنف ضد النساء الا بوصفه الية سلطوية لاعادة انتاج علاقات السيطرة والهيمنة بين الجنسين على الصعيد الاسري وداخل المجتمع العام. وتجدر الاشارة ان المجتمعات الشرقية لا تتميز في هذه الخصائص عن سواها، اذ تشير الابحاث الى ان المجتمعات الغربية نفسها تنتظم وفق التوصيف نفسه وان الاختلافات تكون في الدرجة فقط ومستويات التجلي(عدوني،٢٠١٤، ٢٧). لانه لم يكن للنساء جدارة للتعقل والاختيار فلم يكن لهن تاريخ، هكذا قيل لهنّ وصدقنّ ذلك. وهكذا في النهاية كانت هيمنة الرجال على نظام الرمز هي التي الحقت الضرر بشكل حاسم بالمجتمع. وخلقت هويات ممسوخة ومريضة تقبل بما يصيبها من العناء والظلم والتهميش بقناعة تامّة. فطبقا لهذه الاعراف انّ المراة المثالية هي التي تغيب عن الانظار، والمراة المحتَرمة هي التي لاترفض الهيمنة. وباختصار المراة المثالية تدافع بكل ما لديها عن الغالب وعن القوي. وكلما ابتعدت المراة عن هذه القواعد

التي اسستها الهيمنة، تكون قد خرجت عن "الانوثة"، كما يجب ان تكون خرجت عن "هويتها".

نجد هذه القواعد نفس القواعد التي تستخدم في مجرى التطبيع في النظام الرمزي. النظام الذي يجدد بناءه في وسائل الاعلام السمعية والبصرية والمكتوبة، كالادب والمجلات والصحف ووكالات الانباء والفضائيات والقنوات التلفزية، بل وحتى السياسات الثقافية العمومية؛وهي وسائل تلعب ادوارا لايستهان بها في تكريس العنف والتمييز اذ يذكرنا بورديو: «انّ هذه الادوات الرمزية اصبحت عبارة عن ادوات ل"العنف الرمزي"الذي تمارسه الطبقات الاجتماعية التي تهيمن وتسيّر هذه الادوات»(بورديو، ٢٠١٤، ٢١). «فلايحتاج المرء هنا الى ذكاء استثنائي كي يستنتج ان التنظيم الاجتماعي للعلاقات بين الجنسين قام به جنس الرجال بحكم سلطتهم على المجتمع البشري التي بدات مع بداية نشوء الحضارة والمجتمع الطبقي والدولة. وبهذا التنظيم(الرمزي)حافظ الرجال من ناحية الى حدّ بعيد على حريتهم الجنسية»(ياسين، ٢٠١٦، ١٠٢).

عوداً الى البدء، انّ النساء اللواتي اغتصبن، قتلن لانهن الحقن الخزي بمنزل السيد. والشاب الذي ليس قويا بما يكفي لكي يحميهن، قويّ بما يكفي لكي يقتلهن. فقد لحق بهنّ الخزي كونهنّ جرّدن من الشرف. وانّ الاساءة التي ارتكبت بحقهن القتل لاتحسب كاعتداء، اوجريمة وانما كجريمة ملكية ضد السيد الذي يملكهنّ. بالنسبة للسيد يتخذ حبّه شكل العنف والامتلاك. فالقتل والتوق العذب بالنسبة اليه غير متضاربين(ليرنر،٢٠١٣، ١٩٥).

والغريب انه يتعذر التعامل بسهولة مع هذه الجرائم في التشريعات والاحكام القانونية بسبب الميل المتزايد نحو التعامل معها بوصفها جرائم خاصة اكثر منها عامة، فالاعفاء من العقاب في حالة جرائم الشرف يعدّ جزءا من القانون الجنائي الاردني، حيث كتبت هذه الرواية.

لحظ غيدون كريسل في مسحة لادبيات القتل والانتحار، تمثيل القتل المتماسس في البلدان العربية المسلمة نتاجا لبنى السلطة الهرمية القائمة في المجموعات القرابية الابوية لا فعلا غيريا اوانيا اولا منتميا، فالقتل هنا هو فعل جماعي ناتج عن تخطيط مسبق اكثر من كونه غضبا انيّا او جيشانا عاطفيا تتعذِر السيطرة عليه. وهكذا فانّ جرائم الشرف بهذا المعنى ليست المكافئ لجرائم العاطفة (القتل) التي ترتكب من دون تدبير مسبق، نتيجة الفقدان المؤقت للعقل الناجم عن الغيرة الشديدة او الشعور بالخذلان. وتمتد عملية المراقبة الوثيقة لشرف البنات في

هـذه البلـدان الـى الاشـراف المتواصـل علـى البنـات الشّـابات والحفـاظ علـيهن خلـف الابـواب الموصـدة(دونان وفيونـا مـاغوان،٢٠١٧، ٣٩٧). وبينمـا كـان القتـل علنـا مصـير المـراة المنحلّـة اخلاقيـا فـي الماضـي، كـان القاتـل قـادرا علـى تعزيـز مكانتـه وشـرفه واحساسـه بـالاحترام مـن خـلال اسـتعراض سـلاح الجريمـة الملطّـخ بالـدم فـي الشوارع وتلطيخ ملابسه بدم الضحية(م.ن،٢٠١٧، ٣٩٨).

لقـد اصـرّ انصـار النظريـة النسـوية منـذ سـيتينات القـرن العشـرين علـى فكـرة ان "مـاهو شخصـي يعـدّ سياسـيا ". ولا يـزال عـن هـذا الشـعار رائجـا لاسـباب عـدة، اولهـا ان النشـاط السياسـي السـائد لـم يهـتم بمـا اعتبـره ضـمن النظـاق الخـاص الا مـؤخرا، اي قـانون رعايـة الطفـل والعمالـة المنزليـة والاسـتغلال الجنسـي والعنـف المنزلـي وقضـايا حقـوق الانجـاب. وانهـا ليسـت مجـرد شـؤون فرديـة تنـاقش بـين الازواج فـي اطـار الاسـرة. هـذا الانشـغال باعـادة تحديـد نطـاق السياسـي كـان همّـا اجتـذب فوكـو اليـه، فيقـول: « اذا قلـت انّ كـل شـيء سياسـي هـذا معنـاه انـك تـدرك الوجـود الكلـي لعلاقـات السـلطة وملازمتهـا لمجـال سياسـي، لكـن معنـاه ايضـا ان تكلـف نفسـك عنـاء حـل هـذه المعضلة المعقدة»(ميلز،٢٠١٦، ٩١).

هـذه الفكـرة عـن بنيـة علاقـات السـلطة التـي تشـبه شـبكة العنكبـوت هـي الفكـرة التـي اعتبرهـا مفكـرو النظريـة النسـوية مجديـة، لاسـيما وانهـا تمكـن المـراة مـن مقاومـة الممارسـات القهريـة اليوميـة ومـن رؤيـة هـذه المقاومـة علـى انهـا " فعـل سياسـي"(م.ن، ٩٢). ولنعيد المشهد التالي لقتل منار لاعادة بناء قراءتنا لهذه الرواية:

«نظـرت اليـه يتقـدّم نحوهـا، لكنهـا لـم تتحـرك، اربكـه هـذا. كـان يريـدها ان تهـرب ان يحلـق بهـا مُطلقـا الرصـاص مـن الخلـف، لكنهـا لـم تهـرب. . كـان يريـدها ان تبكـي، تصـرخ، تتوسـل، لكنـا بقيـت صـامتة عيناهـا تحـدّقان فـي الـداخل حيـث عويـل امّهـا ياتيهـا مجبـولا برائحـة المـوت وابوهـا فـوق كرسـيّه المتحـرك غيـر قـادر علـى ان يرفـع عينيـه لينظـر اليهـا. . امـتلات الشـبابيك والشـرفات بمئـات الظـلال المطلّـة علـى الشـارع وحـبس الصـمت انفـاس الجميـع ورای امـين العيـون كلهـا تحـدق فيـه، فيـه هوبالـذات. عنـدها تراجـع خطـوتين واطلـق النـار، وللحظـة احـسّ بانـه لـم يصـبها، فهـي لـم تسـقط، واطلـق النـار ثانيـة وثالثـة فلـم تسـقط، فانـدفع ووضـع المسـدس علـى جبينهـا، اغمـض عينيـه واطلـق النـار.. رفـع ابـوالامين عينيـه ونظـر صـوب الجسـد الساكن الغارق في بحيرة دم صغيرة».

انّ القتـل غسـلا للعـار، تجربـة لـم تقدّر حـق قـدرها باعتبارهـا تجربـة فريـدة تمـرّ بهـا المـراة دون الرجـل. واقـول تمـر بهـا، لان كـل امـراة تـرى نفسـها موضـوعا لهـذا القتـل فـي

ايـة مرحلـة مـن مراحـل حياتهـا. فقـد يـرفض الرجـل المعاصـر، المثقـف مـثلا، القتـل غسـلا للعـار ويعتبـره همجيـة مطلقـة، ولكنـه فـي قـرارة نفسـه لايـرفض "الـدور" الـذي يعطيـه هـذا الحـق. ذلـك ان ممارسـته لهـذا الحـق تُعلـي مـن شـانه، وتضـعه فـي مكـان مكين في منظومة تقسيم الادوار في المجتمع (الأعرجي،١٩٩٧، ١٨).

ويثيرنـا الروائـي بهـذا المشـهد انـه كيـف اتيح لهـذا الكـم الكبيـر مـن القيـود والاعـراف المسـيطرة وهـذه الرقابـة التـي يفرضـها المجتمـع ان يجبـر الاخ علـى القتـل وان يمنـع الاب مـن تـوفير او تحقيـق حـد الادنـى مـن القناعـة التـي يـؤمن بهـا وهـو الـذي كـان متمنيا ان يرزقه الله ببنت كي تملأ بيته بالسعادة:

«**اذا كـان الله يحبنـي فعـلا، فسـيرزقني ببنـت!**»(نصـر الله، ٢٠١٠، ٢٠). «**كـان فرِحاً بابتسامتها الصغيرة القادرة على ان تمحو شقاء اسبوع باكمله**» (م.ن، ٢٢).

لـيس مـن قبيـل المغـامرة او المبالغـة اذ نقـول نحـن مازلنـا نعـيش فـي عـالم يمـارس فيـه وأد الانثـى علـى نطـاق واسـع. وان لـم يكـن القتـل واردا كسـلوك مباشـر، فهنـاك دائمـا بـدائل بحسـب الاوضـاع الاجتماعيـة والثقافيـة. مثـل حرمـان المـراة مـن التعلـيم، حرمانهـا مـن موقـع وظيفـي، اجبارهـا علـى الـزواج، مطالبتهـا بانجـاب الصـبي، طردهـا مـن بيـت الـزوج، هجرهـا دون تطليقهـا، تطليقهـا غيابيـا، تهديـدها بـالطلاق اذا عصـت اوامـر الـزوج و.. فـالوأد الرمـزي مـازال يترصـد الانثـى وفـي كثيـر منهـا لايكـون لهـا حـق الاعتـراض. هـذه قائمـة طويلـة جارحـة مـن الازدواجيـات والثنائيـات فـي المجتمـع الـذكوري، وذلـك كلّـه لأننـا مازلنـا نعـيش فـي عـالم مسـتمر بالـذبح، عـالم لايـزال فيـه العبد عبد والسيد سيد.

عـوداً الـى موضـوع روايتنـا، انّ فعـل العنـف وفعـل الاغتصـاب يتحـدد ثقافيـا بطرائـق وصـور لاحصـر لهـا. وبالتأكيـد لا تقـف الثقافـات جميعـا موقفـا واحـدا تجـاه هـذه الحـوادث. ولكـن مـا نقولـه متأكـدين مـن ذلـك، هـو ان المجتمعـات التـي ترفـع مـن شـأن هيمنـة الرجـل والسـلطة الذكوريـة، تـرتبط ارتباطـا وثيقـا بارتفـاع معـدلات العنـف والاضـطهاد فيهـا. فلـيس مـن قبيـل المبالغـة اذ نقـول انّ الوقـوف فـي وجـه الهتـك والعنـف يحتـاج فـي الدرجـة الاولـى الـى ثـورة للوقـوف فـي وجـه الهرميـة والسـلطوية التـي تخلق التمييز بين الذكر والانثى.

النتيجة

انّ مكـان المـراة موضـع داخـل الوجـود الاجتمـاعي بعامـة. وانّ العنـف ضـدها هـو اسـتخدام غيـر مشـروع للقـوة الماديـة باسـاليب متعـددة اذ يتضـمن ذلـك معـاني العقـاب والاغتصـاب واسـتلاب حريتهـا. فـانّ العنـف ضـد المـرأة سـلوك ينتقـل عبـر الاعـراف

الاجتماعية والمعتقدات والايديولوجيات التي تعمل على المصادقة عليه وقبوله ضمن دائرة ثقافة ما. فالجوء الى العنف ضد المرأة، ظاهرة تمسّ المجتمعات والثقافات والعلاقات الاجتماعية والسياسية ومنظومات القيم والافكار. سواء اخذ اشكالا مادية او رمزية من خلال اللغة والقوانين والطقوس والمعتقدات الدينية والاساطير وغيرها. وتنظر النسوية الى العنف لغسل العار، بانه العملية الرئيسية في الهيمنة الذكورية، وله الجانب الاهم في ديناميات عدم المساواة الجنسية. فأردنا بقرائتنا لرواية "شرفة العار" نؤكد انّ رغم قرون من المساواة القانونية –وان كانت مساواة وهمية– ورغم مرور قرون من الموروث الرهيب للقمع والقهر والذُل، ما يزال هذا القمع والعنف يلقي بظلاله على المجتمعات بأبشع صوره، فكيف يكون تصور الامر في عالم مايزال يعاني ليس فقط من تخلف النساء، او حصرهنّ في المنزل، او منعهن التعليم، بل لايزال العالم يدفع المراة والرجل معا وفي نفس الآن، تحت ضغوط عنيدة بالغة القسوة من الهرمية تنتهي بوأد الانثى.

المصادر

- ابراهيم،عبدالله، السرد النسوي: الثقافة الابوية، الهوية الانثوية، والجسد، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ٢٠١١
- احمد محلم، ابراهيم ، الانثوية في الادب: نظرية و تطبيق، عالم الكتب الحديث للنشر والتوزيع، الاردن، ٢٠١٦
- الاعرجي، نازك، صوت الانثى: دراسات في الكتابة النسوية العربية، الاهالي للطباعة والنشر، دمشق، ١٩٩٧
- بركات، حليم، المجتمع العربي المعاصر، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٩٨٦
- بلقزيز، عبدالاله وآخرون، المراة العربية: من العنف والتمييز الى مشاركة سياسية، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ٢٠١٤
- بن بوزة، سعيدة، الهوية والاختلاف: في الرواية النسوية في المغرب العربي، دار نينوى، دمشق، ٢٠١٦
- بورديو، بيير، التلفزيون واليات التلاعب بالعقول، ترجمة:درويش الحلوجي، دار كنعان للدراسة والنشر، دمشق، ٢٠٠٤
- جامبل، سارة، النسوية وما بعدها، ترجمة احمد الشامي، المجلس الاعلى للثقافي، القاهرة، ٢٠٠٢
- سعيد، خالدة، المراة، التحرر، والابداع، سلسلة نساء مغاربيات: باشراف فاطمة المرنيسي، نشر الفنك، ١٩٩١
- شهابى، محمود، مطالعات فرهنگى فمنيستى، ضمن كتاب: حسين ميرزايى وديگران، درامدى بر روش شناسى مطالعات فرهنگى، پژوهشكده مطالعات فرهنگى و اجتماعى، تهران، ١٣٩٣
- كولمار، ويندي كيه وفرانسيس بارتكوفيسكي واخرون، النظرية النسوية:مقتطقات مختارة، ترجمة عماد ابراهيم، مراجعة عماد عمر، الاهلية للنشر والتوزيع، بيروت، ٢٠١٠

- دونان، هانتنغز وفيونا ماغوان، انثروبولوجيا الجنس، ترجمة هناء خليف غني، المركز الاكاديمي للابحاث، بيروت، ٢٠١٧
- العلمي، عبدالله، امراة خارجة عن الاعراف: المراة السعودية الواقع والتحديات، دار الساقي، بيروت، ٢٠١٥
- ليرنر، غيردا، نشاة النظام الابوي، ترجمة اسامة اسبر، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ٢٠١٣
- منيف، عبدالرحمن، بين الثقافة و السياسة، المركز الثقافي العربي، بيروت، ٢٠٠٧
- ميلز، سارة، الخطاب، ترجمة عبدالوهاب علوب، المركز القومي للترجمة، القاهرة، ٢٠١٦
- نصرالله، ابراهيم، شرفة العار، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، ٢٠١٠
- نهاد، علي، ارهاب مدني:الجريمة والعنف في المجتمع الفلسطيني في اسرائيل، جامعة حيفا، ٢٠١٤
- ياسين، بوعلي، الثالوث المحرم: دراسة في الدين والجنس والصراع الطبقي، دارالحوار، اللاذقية، الطبعة السابعة، ٢٠١٦

Honor Crimes in Brahim Nasrallah's novel "The Terrace of Shame.": A Feminist Reading

Abstract

Feminism as a realistic practice emerges with specific goals working amongst many issues to change social conditions. It is a theory that has a connection with reality and daily life, and it is thoughts and practices as well. Feminism is an activity that has preoccupied many women from different cultural backgrounds, not a mono dimensional norm and cause. Our reading of this novel and our use of this theory was only ground to discuss the phenomenon of honor crimes in the above mentioned novel, which attempts to represent the status of women within the unequal distribution of privilege and power through sexuality.

In this reading, we attempted to give an insight into the patriarchal system of violations, which is supported by cultural institutions. It is clear that this novel is a real picture of oppression against women. Its narratives describe the varying boundaries between shame and honor, modesty and perversion, as they remind us of a complex network of politics and power. Therefore, the study of this narration calls for the optimal means for the position of women and men in the discourse of customs, rites and institutions, calling upon us to study, more carefully the masculine system and the tragedies which brings to both sexes and to push these issues to the fore once again.

Keywords: domestic violence, women's narratives, honor crimes, traditions, hierarchy